فصول لم تنشر من آثار الجاحظ

هذه بقايا كتاب من كتب الجاحظ التى عدت عليها عوادى الزمن ، فلم يبق منه إلا هذه الفصول القليلة ، احتفظت بها المخطوطة البرلينيـة التى أشرنا من قبل إليها ، ونشرنا عنها الرسالة السابقة (١) . وكلا الأثرين يعتبر مظهراً من مظاهر التطور فى النثر العربى ، وإن اختلف موضوعاهما ؛ إذ كان هذا فى الهجاء وذاك فى الرثاء . ولكن الهجاء — كالرثاء — فن شعرى ، استأثر الشعر به ، واختص بالتعبير عنه ، حتى حدث ذلك التطور .

وليس بنا فى هذه المقدمة القصـيرة أن نحلل هذه الفصول من الناحية الأدبية ، أو أن نتعرف الخصائص التى اجتمعت لها وجمعت فيها بين روح الشعر وروح النثر ، أو أن نشير إلى بعض الصلات التى تصل بينها و بين كتاب ككتاب «البخلاء» ؛ فلهذا وما إليه موضعه الذى هو أملك به وأوسع له . ولكنا لا نستطيع أن نغفل سؤالا من أخص الأسئلة بهذه الفصول : من عسى أن يكون موضوع هذا الهجاء اللاذع ؟ وماذا عسى أن تكون شخصية الرجل الذى وسمه الجاحظ بهذا الميسم ؟

والفصول التى بين أيدينا لا تسمى ذلك الرجل ، فليس لنا بد من أن نلتمس السبل إليه . ولعل الكتاب لو وصل إلينا كاملا لم تكن بنا حاجة إلى مثل هذا التلمس ، فأكبر الظن أن الجاحظ لم يترك تسميته ، كما صنع فى رسالة التربيع والتدوير وفى معظم فصول «البخلاء» . ومذهبه فى التسمية قد ذكره فى كتاب البخلاء بقوله : « ولسنا من تسمية الأصحاب المتهتكين ولا غيرهم من المستورين فى شىء : أما الصاحب فانا لا نسميه لحرمته وواجب حقه ، والآخر لا نسميه لستر الله عليه ، ولما يجب لمن كان فى مثل حاله . وإنمـا نسمى من خرج من هاتين الحالين. ولربما سمينا الصاحب إذا كان ممن يمازح بهذا كثيراً ، ورأيناه يتظرف به ، ويجعل ذلك الظرف سلما إلى منع شبنه » . وهذا الرجل ليس من الأصحاب ولا من المستورين ، كما يؤخذ من هذه الفصول .

وإذا كان قد فاتنا أن نعرفه من الكتاب مباشرة ، فقد أتيح لنا أن نعرفه من سبيل غير مباشرة ، بفضل اعتماد كثير من المؤلفين على كتب الجاحظ واستمدادهم منها ؛ إذ نجد عندهم ما ضاع عنده . وبذلك قدر لنا أن نعرف هذا الذى وسمه الجاحظ بكتابه وصبه عليه ، وهو محمد بن الجهم البرمكى . وقد وجدنا ذلك عند ابن قتيبة من معاصرى الجاحظ فى القرن الثالث ، فى كتابيه : «عيون الأخبار» ، و«تأويل مختلف الحديث» ، وعند أبى إسحاق الحصرى من علماء القرن الخامس فى الأندلس ، فى كتابه « زهر الآداب » ، وعند جمال الدين الوطواط من علماء

(١) الكاتب المصرى ، عدد ٩ (يونيه ١٩٤٦)

القرن السابع والثامن فى مصر ، فى كتابه « غرر الخصائص الواضحة » ؛ إذ ينقلون فقرات من هذا الكتاب ، مع النص على أنها فى صفة محمد بن الجهم هذا . كما نجد فى بعض هذه الكتب وفى غيرها كشرح الشريشى على مقامات الحريرى فقرات أخرى فى صفته ، تجرى على سياق هذه الفصول ، حتى ليغلب على الظن أنها مأخوذة من هذا الكتاب .

وإذن فمن هو محمد بن الجهم هذا ؟

هو ـ فيما تؤدى إلينا أخباره القليلة المنثورة هنا وهناك ـ عالم من سراة العلماء فى القرن الثانى والثالث ، نشأ ـ فيما يبدو ـ مولى من موالى البرامكة ، وتربى فى ظلهم ، فاتجه فى الثقافة اتجاههم . وبذلك كانت ثقافته مزاجا من الفارسية ، وهى تمثل العنصر الأول الضرورى منها ، واليونانية ، وهى تمثل ناحية الترف العقلى فيها . ومظهر ثقافته الأولى ترجمته لكتاب خداى نامه الذى ترجمه ابن المقفع من قبل ، كما ينص على ذلك صاحب الآثار الباقية . وأما مظهر ثقافته الثانية فهو هذا الذى عرف به واشتهر عنه من إقباله على كتب اليونان كأرسطو وأقليدس واستغراقه فيها ، حتى اتخذ خصومه من ذلك مادة للتندر به والتشنيع عليه ، كما نرى فى هذه الفصول ، وكما نجد صورة منه عند ابن قتيبة إذ يقول : « ثم نصير إلى محمد بن الجهم البرمكى ، فنجد مصحفه كتب أرسطاليس فى الكون والفساد والكيان وحدود المنطق ، بها يقطع دهره » .

وجملة القول أنه كان من أصحاب الثقافة الممتازة فى عصره . ولعله بهذا استطاع أن يظفر من الخليفة المأمون بالمنزلة الرفيعة التى ظفر بها لديه ، فكان أحد ولاته على الأهواز ، وكان من أصحاب مجلسه الذين يوكل إليهم أحياناً بمناظرة الزنادقة والملاحدة وأهل النحل المختلفة . وقد ألف له فيما يقول القفطى ـ كتابا « فى الاختبارات ، قريب المأخذ صحيح العبارات جدا » . ولكن ثقافته هذه لم تتخذ ـ فيما يظهر ـ صبغة دينية ؛ فكان ذلك من أول الفروق بينه وبين المعتزلة .

ثم كان من ناحية الخلق الشخصى رجلا شديد الصلف والاعتداد بالنفس ، كبير التيه أنانى المذهب ؛ فكان لهذا مبغضاً . وقد يكون لمكانه فى القصر ، ومنافسته المعتزلة عند الخليفة ، مع اختلاف النزعة العقلية ، ما يمكن أن يعزى إليه هذا الجو البغيض الذى أحيط به وعاش فيه بين سخط المعتزلة وأهل السنة جميعا ، وكان من مظاهره ــ ولعله يكون من العوامل التى شاركت فى تهيئته ــ كتاب الجاحظ الذى نملك منه هذه الفصول التى نقدمها اليوم ، بعد أن صححنا نصها ، فى حدود الأصول العلمية للنشر .

طه الحاجرى

. . . وسأخبرك عن هذ الرجل ، من لؤم الطبع ، وسخف الحلم ، ودناءة النفس ، وخبث المنشأ ، بما يشفى الصدر ويثلجه ، ويبين عن الغدر فيه ويكشفه . وأستشهد العدول ، وأهل المخيلة والعقول ، على أنى لم أر له محتجًّا ، ولا عنه مكذِّباً ، ولا رأيت أحداً يرحمه ، أو يحفل به ، أو يمسك عنه ، أو يشفع فيه .

قلت لمعاذ بن سعيد : أدخلت عليه ؟ قال : نعم ! قلت : فكيف رأيته ؟ قال : لا يعود إليه حر .

وقلت للفيض بن يزيد : صفه لى ، فانك تعرف الأمور ؛ وقل ، فانك تحسن أن تقول . قال : يضر — والله — عنده ما ينفع عند الكرام ، وينفع عنده ما يضر عند الكرام . قلت : فكيف عشرته ؟ قال : فوق العذاب الأدنى ، ودون العذاب الأكبر .

وقال أبو عقيل بن دُرُست : اللهم إنى أعوذ بك من باطن عزمه ، كما أعوذ بك من ظاهر عمله !

وقال شدّاد الحارثى : لم أر لؤماً قط إلا والدهر ينقص منه أو يزيد فيه ، إلا لومه ؛ فانه قد تناهى فى القوة ، وبلغ أقصى النهاية ؛ وعاد مُصْمَتاً لا يدخل عليه ، ومشتبهاً لا حيلة فيه . فان كان إلى الغاية أجرى ، فقد حوى قصبات السبق ؛ وإن كان للتفرد طلب ، فقد خلا بالرياسة ، واستبد بالوحدة .

وقال سهل بن هارون : إن الحاسد والغضبان والحاقد والعيّاب ، إذا استنفدوا العيوب ، استثلوا قول الزور ، والتمسوا ما شاكل الحق وقاربه ، وأشبه ما فى المسبوب وناسبه ، وبهتوا الرجل بقرنائه . وفحشُ عيوبه ، وظهور لؤمه ، وكثرةُ الشهود عليه والقائلين فيه ، لا يحوجك إلى اليمين والشاهد ؛ فعائبه سليم من الذنب ، مُعْفى من الكذب ؛ لا يعيبه ورِع ، ولا يسفهه كريم ؛ وله عند ذامه والواصف لعيوبه أياد لا تشكر ، ونعم لا تنكر .

ووصفه آخر فقال : هو منحرف عن الجادّة ؛ يخبط خبط العشواء ، ويحكم حكم الورهاء ، ويناسب أخلاق النساء ؛ لأن المرأة لاتسمو إلى مراتب السادة ، ولا تروم منافسة القادة ، وليس لها من عقلها مادة ؛ همها قصير ، وركنها ضعيف ، وصدرها ضيق ، ورأيها منتشر ؛ وفى قوى هواها فضل على قوى عقلها ، وسخفُ رأيها غامر لرجاحة حلمها ؛ لا تعرف حدود الاعتدال ، ولا مواقع الاقتصاد ، ولا التوسط فى الأمور ، ولا عواقب التدبير .

ووصفه آخر فقال : هو يظلم الضعيف ، ويقتل الصريع ، ويذفف على الجريح ، ويطلب الهارب ، ويهرب من الطالب ، ولا يعرف التقية ولا المروءة . يعق أباه ، ويحسد أخاه . العجب شقيقه ، والبذخ صديقه ، والنفج أليفه ، والصلف عقيده .

قد تمكن منه الشيطان ، فهوّن عليه سخط الرب ، وسهّل عليه عقاب الأبد ، ووعده الظفر ، ومنّاه السلامة ، ولقنه الاحتجاج بالباطل ، وزين له قول الزور ، ونظم له خلال الشر . فى أنفه خُنْزُوانة ، وفى رأسه نُعْرة ، وكأنما أنفه فى أسلوب . ومن عَظُم كبرُه اشتد عجبه . ومن أعجب برأيه لم يشاور كفئاً ، ولم يؤامر نصيحاً .

ووصفه آخر فقال : أسلمته الحال إلى القسوة ، واستفرغته الغفلة ، واستولى عليه سلطان الطَّبَع ، وكثُف على قلبه حجاب الرَّيْن ؛ فلم يبق فى عقله فضل للاستماع ، ولا فى استطاعته بقية للتصرف . ينبو عنه السيف وإن كان صارماً ، وتقف عنه الحجة وإن كانت قاطعة . ولا يجد النافخ فيه فحما ، ولا القابس قبساً ، ولا المورى زنداً .

قال معمر السلمى — وذكره مرة فى كلام له — : موكل بلوم المحسنين ، والتعجب من المُفْضِلين . يعدّ الاقتصاد جوداً ، والجود سرفاً . ويعجب من الطامع فيه ، والراغب إليه . ويضعف من جزع من الذم ، وهشّ للحمد . لا يعد الحزم إلا المنع ، ولا العيش إلا الجمع . لم يحدّث عن جواد قط ، ولا ندم على سوء قط ، ولا أمسك عن الاحتجاج له . ثم ماظنك بعِرق السوء إذا تقادم ، واللؤم إذا تمكن ، والبخل إذا تفحّل ، والفحشاء إذا تمت ، والدناءة إذا كلت ! يعظّم الغنى وإن كان غُفْلا . ومن الأدب خلواً ، ومن حلى الجود عُطُلا ؛ ويحقر القل وإن كان أديباً ، حكيما عليما ، وحُوَّلاً بارعاً ، ولمجهوده باذلا . شديد الكبر على جليسه ، متهاوناً بعظيم حقه . ولو انقطع إليه أبوه ، واحتاج إليه أخوه ، وأعظم الناس عنده يداً ، وأظهرهم فضلا ، لنضحه من غريب الكبر ، ولصب على دروته من بديع الذل ، مالا يقوم به عز ، ولا ينهض به حر ، ولركبه بما لا يحتمله الكلم ، ولا يرومه العزم . يقدّر أن الله لم يفقر الكريم إلا لِيُضْرِع خده ، ولا أغنى اللئيم إلا ليرفع قدره .

وقال ثُمامة بن أشرس ، فى كلام له : لم يطمع أحداً قط فى ماله إلا ليشغله بالطمع فيه عن غيره ، ولا تشفّع فى صديق ، ولا تكلم فى حاجة متحرم به ، إلا ليلقّن المسئول حجة منع ، وليفتح على السائل باب حرمان .

وقال أبو بكر الأصم : لم أر مثله ، بل لم أسمع ، والسماع أكثر ، بل لا أتوهم ، والتوهم أفسح . وما ظنكم بمن يمسى فى غضب الله تعالى وسخطه ،

ويصبح فى خذلان الله وتخليته من يده ! وما ظنكم بمتكلم لا يعرف قوله ، ولا يقضى على مذهبه ؛ سواء عنده التشبيه ونفيه ، والجبر وضده ، والارجاء وخلافه، ولا يعادى الخارجى ، ولا يتولى النابتى ، ولا يحفل بالجماعى ، ولا يغضب على الرافضى .

وقال الحصين بن الحسين ، فى كلام له : إن مما يوئس من رجوعه ، ويُقنط من نزوعه ، وأن الله قد طبع على قلبه فى اللؤم ، وضرب على سمعه فى البخل ، أن البخيل الموسر ، والمنوع المثرى ، إذا كان عاقلا وبأمور الناس عارفاً ، لا يسوغ له شراب ولا يطيب له عيش ، وأنه لا يقدر على مخالطة الناس وملابستهم، ومجاراتهم ومصاهرتهم ، إلا بأن يجعل التواضع دريئة دون ماله ، والسعى فى حوائجهم جُنّة دون عرضه ، وعلى ألا يجمع بين الكبر والمنع ، وبين التنبل والبخل ؛ إلا ما كان من هذا الرجل ؛ فانه قد خرج من طباع الأمة ، ونقضَ ما عليه تجرى العادة ؛ فبلغ فى الكبر الغاية ، كما بلغ فى البخل النهاية ؛ إلا أن كبره لا يجوز إلا لعامة الرعية والحرمة . هذا مع ثقل الروح والفدامة ، والبرد والوخامة . فلو كان حلو الحديث عذرته ، ولو كان حسن الاستماع أمسكت عنه . ولو تمسك بسبب من الخير و إن ضعُف ، أو رغب فى شئ من المعروف و ان قل، لأضربت عنه صفحاً ، وطويت عنه كشحاً . ولكن استفرغ اللؤم وتعرقه ، وبلغ غايته واستوعبه . وكيف ولم يسمع بمُلْحة قط ولا فهمها ، ولا ابتسم من نادرة قط ولا عقلها .

وذكره مرة أخرى ، فقال : امتنع — والله — من استحسان ما يقوله المتحرم به ، ومن استجادة ما يظهر من المنقطع إليه ، و إن حسنت معانيه ، وشرفت ألفاظه ، وسهلت مخارجه ، مخافة أن يزيد ذلك فى طمعه . ويفسح من أمله ، و يجعله حجة عليه عنده فى تقصيره به ، وحرمانه إياه .

لم يفهم عن الله شيئاً قط إلا ازدراه ؛ ولا روى أثراً ، ولا طلب شعراً ، ولا حفظ خبراً ، ولا قرأ تنزيلا ، ولا سمع تأويلا . وقد رضى بكتاب المنطق بدلا من القرآن ، وبالكون والفساد عوضاً من الأحكام ، وبالعرض والجوهر خلفاً ، وبالجزء والطفرة شرفاً . إذا فكر المسلمون فى الجنة والنار ، فكر فى الدرهم والدينار ؛ و إذا فكر الكريم فى الذكر ، والعابد فى الأجر ، فكر فى الاحتيال للمنع ، وفيما زاد على الجمع . فهو نسيج وحده فى اللؤم ، وواحد عصره فى البغض ؛ وهو

الصرف فيهما البحت ، والخالص المحض . قد أصبح إمام كل لئيم ، وقائد كل دنىء . وحسبك برجل أوصى إلى العتبى ، وتفرَّس الخير فى المروزى ، وقال فى وصيته ، وبحضرة جماعة من فقراء أهله : يزعمون أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « الثلث ، والثلث كثير » ، وأنا أزعم أن ثلث الثلث كثير . للمساكين حقهم فى بيت المال ؛ إن طلبوه طلب الرجال أخذوه ، وإن جلسوا عنه جلوس النساء مُنعوه ؛ فلا يرغم الله إلا أنوفهم ، ولا رحم من رحمهم !

فهذه وصيته ، والعتبى والمروزى خيرته ، وتلك سنته وطريقته .

فلا تعجل أيها السامع ، واعلم أنى مقصر فيما أتولى من وصفه . فهو رجل لا تنجع فيه الرُّقى ، ولا تنفذ فيه الحيل ، ولا يهزه المديح ، ولا يحز فيه اللوم ، ولا يتوهم أحاديث غد ، ولا يؤلمه التوبيخ ، ولا يبالى سخط الكرام ، ولا شكية الأحرار ، ولا وعيد الرجال ، ولا لزوم الحجة ، ولا إناخة العلة . وليه كعدوه ، وجاره الأدنى كالأجنبى الأقصى . رفيقه جائع ، وصديقه ضائع ، وجاره ذليل ، وناصره مخذول ، وجليسه مقموع ، وغريمه ممنوع ، وصفيه محجوب ، وخادمه مكروب ، وكلبه مهزول ، وبابه مَهجور ، وأكيله فى تقية ، وشريبه فى بلية ؛ وكلهم فى جهد البلاء ، لولا راحة الدعاء .

هذا مع ظلم العباد ، وإخراب البلاد ، والخيانة الكثيرة ، والتضييع الفاحش ، والضعف عن عمله ، وابتلاء الجند على رغبته ، والحكم بالرِّشا ، والحجاب الشديد ، وضرب الخصوم ، والجبه للشهود ؛ مع الجهل بالحكومة ، وضيق الصدر فى المنازعة . لا يرحم المظلوم ؛ فاذا استرحمه ازداد عليه غلظاً . ولا يرقّ لفقير ؛ فان تعرض له قتله جوعاً .

أنا أدلك على صفة هذا الرجل .

ويل لمن ظن أنه يرجوه ، أو يطمع فيه ! وويل لمن عاد إلى تأميله ، أو طمع فى ماله ! وويل لمن أثنى عليه خيراً ، وقدَّر لديه عرفاً ! وويل لمن ترك الرد عليه ، ولم يرفع ذلك إليه !

لم يضمر لأحد قط حبًّا ، ولا تمنى له خيراً ؛ ولا اشتاق إلى صديق ، ولا استوحش إلى أنيس . لم يتوكل قط إلا على حيلته ، ولا فزع إلا إلى رأيه ، ولا

عرف الاستخارة والاستشارة . يسخر ممن يرى أن البركة فى المشورة ، وأن النجح مقرون بالاستخارة ، وأن الدعاء يكشف البلاء . ولا يعرف التوفيق ، ولا يثق بالتوكل .

وقال محمد المكى : قلت له مرة : جعلت فداك ! لعل إخوانك أن يجلسوا عندك فوق مقدار شهوتك ؛ فان أقمتهم استحييتهم ، وإن تركتهم ثقل عليك مكانهم . وما زالت الملوك تجعل لهذا أمارة ، وتنصب له علامة . وقد قيل هذا لمعاوية بن أبى سفيان ، فقال : آية ذلك أن ألقى الخيزرانة من يدى . وقال يزيد ابن معاوية : آية ذلك أن أستلقى على فراشى . وقال عبد الملك بن مروان : آية ذلك أن أقول : إذا شئتم . وقال سليمان بن عبد الملك : آية ذلك أن أقول : على بركة الله . فاجعل لنا آية ننتهى إليها ، وأمارة لا نجاوزها . قال : آية ذلك أن أقول : ياغلام ، الغداء !

وقال مرة : بئس الشئ الصديق : إن أعطيته أفقرك ، وإن منعته وجد عليك ؛ ومتى وجد عليك ظلماً أغضبك ، ومتى أغضبك أوحشك ، ومتى أوحشك استوحش منك .

وقال أيام ولايته بالأهواز : من وهب المال فى عمله فهو أحمق ، ومن وهب ماله بعد عزله فهو مجنون ، ومن وهب ماله من جوائز مملوكة ، أو من ميراث لم يتعب فيه ، فهو محدود ، ومن وهب من كسبه ، وما استفاد بحيلته وكده ، فذاك المطبوع على قلبه ، المأخوذ بسمعه وبصره .

واحتجب حيناً عن زواره ، ليستعدوا النفقات فيعجزوا ، وليضجروا فيذهبوا . فان أمسكوا عن ذمه فقد أعفوه ، وإن ذموه فقد منعوا الناس منه . فخرج يوماً فقاموا إليه فناشدوه ، وأذكروه الحرمة ، وقرظوه ؛ فجبهم مرة ، وحاجهم مرة ؛ بقلب جامع ، ولسان عضب . فلما رأوا ذلك انصرفوا عنه بجيد اللعن فيه والسب له .

وكيف ألام على بغضه ، وعلى إرغامه ومقته ، وأنا لو أحببته لاستوحشت من الوحدة ، وجئت فى الاسلام ببدعة ؟ وكيف أحبه وأتولاه ، وقد قال الله تعالى : «ومن يتولهم منكم فانه منهم» ، وأعلم أن من أحب الناس فى الله أبغض فيه ، ومن أحب الكرم أحب الكرام ، ومن أبغض اللؤم أبغض اللئام ، ومن أحب الله أبغض من لا يحبه الله !

وبعد هذا كله ، فكيف أحبه وأقصّر فى بغضه وأفترُ عنه ، وهو يزعم أن اسم الكرم كلمة وضعها المستأكلون من العرب ، ولقنها عنهم المولدون ، وأنه لا يعرف للذمام معنى ، ولا للحرمة حقيقة ، وأن هذه الأسماء الموضوعة والصفات المصنوعة ، إنما هى خُدْعة وحيلة ، وخِلابة ومكر ، ومخاريق وباطل ، وأن المغرور من غره المدح ، واستماله حب الذكر ، وهشّ للتطرية ، وفرح بالتقريظ . وزعم أن الثناء عرض والمال جوهر ، والمال جسْم باق والثناء عرض فان .

وقال : ألا ترى أن ذا المال يعظّم وإن كان غير ذى وجود ، والجواد لا يعظّم إن كان غير ذى مال . وزعم أن الثناء أشبه شئ بالسراب المائع ، وبحلم النائم ، وبأمس الذاهب ، وبأضاليل المنى . وزعم أن مدار الأمر فى الأخبار على المنافع والمضار . وأن الصدق لا يحسن إلا لأنه ينفع ، والكذب لا يقبح إلا لأنه يضر ؛ فاذا نفع الكذب فقد تحول حكمه ، وإذا ضر الصدق فقد تبدل اسمه . وليس بين نفس الصدق والعقول وَلاية ، ولا بينها وبين الكذب عداوة ؛ ولكن لما كان اتفاق النفع فى الصدق أكثر ، صار عند العوام أحمد ؛ ولما كان ما يتفق بالمضرة فى الكذب أكثر ، صار عند العوام أذم .

فماله لعنه الله ، ثم ما له لعنه الله ! كيف نصب للكرم ونهى عنه ، وتكفل باللؤم ودعا إليه ؟ وكيف اعترض على جميع المتقين ، وبلغ كيده جميع المؤمنين ؟